مادة الأدب الأموي (قسم النثر): د. زاهر الشمّاع

المحاضرة الرابعة المقرَّرة بتاريخ: الأحد ٢٠٢٠/٤/٥م

- **أهم المعاني التي دارَتْ عليها خُطَبُ الحزبِ الأموي:**

١) الاحتجاج لحق بني أمية في الحكم:

إذ كانوا يرون أنهم حكام المسلمين الشرعيون الذين انعقد عليهم إجماع الأمّة، لكنهم كانوا لا يجهلون أنهم إنما ظفروا بالخلافة عن طريق القوّة والحيلة، فلم يحمل جمهرة المسلمين على مبايعتهم إلا الخوف أو المال، ولم يكونوا قادرين على إثبات حقِّهم في تولّي أمور المسلمين بالحجة الدّامغة والبرهان القاطع، فكانوا لذلك قلما يتعرضون في خطبهم هم وأنصارهم لهذا الأمر، وإذا تعرّضوا له سلكوا سبيل المداورة والمغالطة، وربما صرّحوا إلى اضطرارهم إلى سلك سبيل القوة لانتزاع حقِّهم من الطامعين فيه كما في قول معاوية في خطبته في المدينة عام الجماعة: ((**أمَّا بعد، فإني والله ما وُلِّيتُها بمحبةٍ منكم ولا مسرَّةٍ بولايتي ولكني جالدتُكُمْ بسيفي هذا مجالَدَةً...**)).

فالحق الذي يَدعونه إذاً حق القوة وهذه هي حجتهم الدّافعة التي يأتون بها وربما زعموا أحياناً أنّ سلطانهم مستمدٌّ من الله، على أن فكرة الحق الإلهي هذه لم تكن واضحة بعد، لا في أذهان الحاكمين ولا في أذهان المحكومين، فنجد زياداً يقول في خطبته البتراء: ((**أيها الناس إنّا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خَوَّلَنا**)). ولم يلحّ أنصار بني أمية على هذه الناحية في خطبهم، وإنما تعرّض لها أنصارهم من الشعراء، ومجال المبالغة في الشعر أكبر منه في النثر.

٢) مطالبة الرعية بالطاعة:

فقد كانت خطب بني أمية وأنصارهم تلحُّ على مطالبة الرَّعية بالطَّاعة والتحذير من الفتنة والمعصية، ونجد الخطباء غالباً ما يضعون لقاء الطاعة الواجبة على الرعية العدل المفروض على الراعي، مثال ذلك قول زياد بن أبيه: ((**فلنا عَليكُم السَّمع والطَّاعَة فيما أحببنا، ولكم علينا العدْل فيما وُلِّينَا**)).

٣) بيان خطة الحكم:

كان الخليفة الأموي يعلن للرّعية عند تولّيه الحكم خطته في الحكم والمبادئ التي سيتخذها شعاراً له، وربما عمد الوالي إلى إيضاح خطته أيضاً في مستهل ولايته، كقول زياد بن أبيه: ((**إنِّي رأيتُ آخر الأمرِ لا يصلُح إلا بما صَلَحَ به أوَّله، لينٌ من غيرِ ضَعْفٍ، وشدَّةٌ في غيرِ عنفٍ**)). وكان الخلفاء والولاة حراصاً على إبراز حكمهم في إطار مغرٍ ليجتذبوا القلوب، فيعدون الرّعية بالعدل وحسن السّيرة وعدم تأخير العطاء واستحضار كتاب الله وسنة نبيه في أحكامه، وهذا ما نجده في خطبة زياد بن أبيه، أما الحَجَّاج فاتَّبع سياسة الأخذ بالشّدّة.

٤) التهديد والوعيد:

ما كان بنو أميّة يجهلون أنهم ظفروا بالحكم بالقوة، وأنّ جلّ أهل الأمصار ما دانوا للحكم إلا مكرهين، وأن أعداءهم يتربصون بهم، فكان خطباء الحزب الأموي لهذا السبب يعمدون في خطبهم إلى تهديد من تحدثه نفسه بالثورة والعصيان بالويل والثبور، ويتوعدون الخارجين عليهم بسوء المصير، وينفرون القوم من الفتنة ويحذرونهم مغبَّتها، كما فعل زياد بن أبيه في خطبته وكما فعل الحجّاج في خطبته، ولعلّه أكثر خطباء بني أمية اتباعاً لهذا الأسلوب، وربما أتى به في قالب تصويري ليكون أبلغ في النفوس، وهذا التهديد منصبٌ فقط على من يجهرون بمعارضة بني أمية قولاً أو فعلاً، أما من تظاهر بالولاء لهم تقيّة وطوى جوارحه على بغضهم والنقمة عليهم فإنهم ما كانوا يحفلون به، حسبهم أنه لا يدعوا إلى فتنة ولا يؤلّب عليهم الأعداء. وبنو أمية كثيراً ما يشيرون في خطبهم إلى أنّ هذا كل ما يبتغونه من النّاس وهم لا يطمعون منهم بالولاء

الصادق والمودة الخالصة، قال زياد بن أبيه: ((**وقد كانت بيني وبينَ أقوامٍ إحَنٌ، فجعلتُ ذلك دَبْرَ أذُني وتحتَ قدمي، فمَن كان منكم مُحسناً فَلْيَزدْ إحساناً، ومن كان منكم مُسيئاً فَلْينزِعْ عن إساءَتِه. إنِّي والله لو عَلِمتُ أنَّ أحدَكُم قد قَتَلَهُ السُّلُّ من بُغْضي لم أكْشِف له قناعاً، ولم أَهْتك له سِتْراً حتى يُبْدي لي صفحَتَهُ، فإذا فعلَ ذلك لم أناظِرْهُ**)).

٥) الترغيب بالعطايا والهبات:

لم تكن خطب الأمويين تنطوي على التهديد والوعيد فحسب، وإنما جمعت بين الترغيب والترهيب وهي الطريقة المثلى للتأثير في النفوس واستمالة الناس، وقد كان منع العطاء أو بذله سلاحاً في يد بني أمية يجيدون استخدامه، **ونجد ذلك في خطبة زياد بن أبيه، كما نجده عند الحجّاج.**

٦) تحدِّي الأعداء وشتم المعارضين:

لم يكن موقف بني أمية من معارضيهم والناقمين عليهم رقيقاً ليناً، وإنما كانوا يسلكون إزاءهم سبل التحدي الساخر ويلوّحون بقبضاتهم متوعدين، ولا يتورعون عن شتم مناهضيهم أقبح شتم وإلصاق النعوت والألقاب المستقبحة بهم وتحقيرهم ، وإظهار الاستخفاف بهم والتّهوين من شأنهم، وأكثر ما **نجد هذا في خطب الحجّاج وعتبة بن أبي سفيان.**

٧) الفخر والمباهاة والاعتداد بالقوة:

كانت خطب الأمويين تفسح مجالاً لظهور روح التفاخر والتعالي المتأصلة، ولكن فخر الخطيب بذاته ليس المقصود منه المباهاة، وإنما الغاية منه إرهاب المخاطبين وإلقاء الرّوع في نفوسهم وتحديهم، ومن هنا كان الخطيب يحرص على إبراز صفات القوة والبطش والشدة التي يتسم بها، كما كان يحرص على إظهار الحزب الأمويّ بمظهر الحزب القوي الصعب المراس الذي يبطش بعدوه بلا هوادة، فالفخر بالقوة غايته إرهاب المعارضين وحمل الناس على الإذعان المطلق لسلطان بني أمية. نجد ذلك في **خطبة عبد الملك بن مروان عندما وقف يفخر على أهل العراق بقوة بني أمية بعد مقتل مصعب، ونجده في خطبة الحجاج.**

ملحوظات مهمَّة:

– نرصد على مَرِّ أصناف الخطب أو موضوعاتها: السمات العامة لكل صنف من حيث المضمون (المعنى)، ومن حيث الشكل (اللغة). لذلك رأينا السمات العامة المعنوية **للخطب الدينية**، والسمات العامة الفنية لها. لكننا وجدنا في **الخطب السياسية**: المعاني التي دارتْ عليها خطب الحزب الأموي، ولم نجد السمات العامة المعنوية للخطب السياسية، وإنما وجدنا السمات العامة الفنية فحسب للخطب السياسية (سنذكرها لاحقاً). وهذا مردُّه إلى اختلاف **المعاني** و(هموم الخطباء) بين حزب وآخر، ولا يمكن جمعها في سمات واحدة، إذاً يمكننا أن نرمِّم ما في الكتاب المطبوع ونذكر بإيجاز المعاني التي دارتْ عليها خُطَب الشيعة، وكذلك الخوارج، وكذا الزبيريون. أما السمات الفنية للخطب السياسية برمَّتها فموجودة ومجملة في الكتاب المطبوع لأنها تشترك في خطب الأحزاب جميعها.

وأما سائر أصناف وموضوعات الخطب، ففي دراسة كل موضوع يوجد في الكتاب المطبوع خلاصة لسمات معنوية وفنية سنقف عليها في مواضعها، كخُطَب الحث على الجهاد، وموضوعات الخُطَب الاجتماعية (المحافل والوفود، والمفاخرات، والتأبين والتعزية...إلخ).

– الملحوظة الأخرى بخصوص دراسة لغة نصوص الخُطَب، فثمَّة ملحوظة يمكن أن تُنظِّم الأمر في أذهانكم دَفْعاً للضياع والتشتُّت أو الصعوبة في الدراسة، وهي أننا دائماً ننظر في اللغة إلى مايلي:

الألفاظ: وضوحها من غموضها، وسهولتها من وعورتها، ومناسبتها للمقام وللموضوع من عدم مناسبتها، وفصاحتها...إلخ

التراكيب: طولها من قصرها، تماسكها ومتانة نسجها من غير ذلك...إلخ

الأسلوب: ننظر فيه إلى عدة ثنائيات:

الترسُّل أو السجع – الخبر أو الإنشاء – استخدام الصور البيانية من عدمها – التعويض عن الصور البيانية بفنون البديع أم لا.

وإذا أراد الخطيب أن يشحن نَصَّهُ بالانفعال والعاطفة ليؤثِّر في سامعيه، لجأ في أسلوبه إلى مايلي:

- استخدم الإنشاء، أو أكَّدَ الخبر بمؤكدات.
- استخدم الصور البيانية، أو عوَّض عنها بفنون البديع المتعددة.

نتابع مع نماذج الخُطَب السياسية، وسننتقل من الحزب الأموي الحاكِم إلى الأحزاب المعارِضة، وسنتوقف بدايةً عند حزب الشيعة:

من خُطَب الأحزاب المعارِضة:

– خُطَب الشيعة: أ– قبل مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما: (مثالها: خطبة الحسن بن علي رضي الله عنهما في أهل الشيعة بعد تنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان عام ٤١هـ).

ب– بعد مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما: (مثالها: خطبة عُبَيد الله بن عبد الله المرّيّ في أهل الشيعة من التَوَّابين نحو عام ٦٥هـ، بعدما قُتِلَ الحسين بن علي رضي الله عنهما).

مقدمة:

خُطَب الشيعة التي وصلت إلينا كثيرة ومتعددة، وذلك لأن الشيعة ظلّوا يناضلون الحزب الأموي طوال سنيّ حكمه التي بلغت نحو تسعين سنة، فكان من الطبيعي أن تُخلِّف حياتهم الحزبية ومعارضتهم المستمرة لحكم بني أمية وثوراتهم المتتالية خطباً كثيرة.

وخُطَب الشيعة معرضٌ لحال حزبهم ومواقفه التي عاشها في مختلف الفترات فهي تعكس لنا بوضوحٍ فكرهم من خلال الأحداث التي خاضوها في نضالهم السياسي.

وسنقف بالدراسة والتحليل على نموذج واحد وهو خُطْبَة عُبَيد الله بن عبد الله المرّيّ:

خَطَبَ عُبَيد الله بن عبد الله المرّيّ – وكان من أخطب الشيعة فصاحةً وبياناً – فبدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال:

«أمَّا بَعْد: فإن الله اصطفى محمدًا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خَلْقِهِ بنبوَّته، وخَصَّه بالفضل كُلِّه، وأَعَزَّكُم باتباعه، وأكرمكم بالإيمان به، فحقن به دماءكم المسفوكة، وآمن به سُبُلَكُم المَخُوْفَةَ ﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1] فهل خَلَقَ رَبُّكُمْ في الأوَّلين والآخِرين أَعْظَمَ حقّاً على هذه الأمة من نبيِّها؟ وهل ذُرِّيَّةُ أَحَدٍ من النبيين والمرسَلين أو غيرِهم أَعْظَمُ حقًّا على هذه الأمة من ذُرِّيَّةِ رسولِها؟ لا والله ما كان ولا يكون، لله أنتم! ألم تروا ويَبْلُغْكُمْ ما اجْتُرِمَ[2] إلى ابن بنتِ نبيِّكم؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حُرْمَتَهُ، واستضعافِهِمْ وَحْدَتَهُ، وتَرْمِيلِهِمْ[3] إياه بالدم، وَتَجْرَارِهُمُوهُ على الأرض؟ لم يراقبوا فيه ربَّهم ولا قرابَتَهُ من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! اتخَذوه للنَّبْلِ غَرَضًا، وغادروه للضِّباع جَزَراً[4]، فللهِ عَيْناً مَنْ رأى مِثْلَهُ! وللهِ حُسَيْنَ بنَ عَلِيٍّ! ماذا غادروا به؟ ذا صِدْقٍ وصَبْرٍ، وذا أمانةٍ ونجدةٍ وحَزْمٍ، ابنَ أَوَّلِ المسلمين إسلاماً، وابنَ بنتِ رسولِ ربِّ العالمين، قلَّتْ حُماتُهُ، وكَثُرَتْ عُداتُهُ حَوْلَهُ، فقتله عَدُوُّهُ وخَذَلَهُ وَلِيُّهُ، فويلٌ للقاتِل، وملامةً للخاذِل، إنَّ الله لم يجعلْ لقاتِلِهِ حُجَّةً، ولا لخاذِلِهِ معذرةً، إلا أنْ يُناصِحَ للهِ في التوبة، فيجاهدَ القاتلين، وينابذَ القاسطين، فعسى اللهُ عند ذلك أن يُقِيلَ العَثْرَةَ. إنَّا ندعوكم إلى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه والطلبِ بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المُحِلِّين والمارِقين، فإنْ قُتِلْنا فما عند الله خيرٌ للأبرار، وإنْ ظَهَرْنا رددنا هذا الأمرَ إلى أهل بيتِ نبيِّنا.»

- **حول الخطبة:**

تُعَدُّ هذه الخطبة من أهم خطب التوّابين، والتوّابون جماعة من الشيعة قامت بعد مقتل الحسين في كربلاء تدعو إلى التوبة مما وقع منهم من تفريط في نصرة الحسين والاستجابة لعونه ونجدته، وقد أدى هذا التفريط إلى المأساة المحزنة التي جرت للحسين في كربلاء من مقتله وتشريد نسائه وأطفاله، وكان منهم خطباء بلغاء منهم: سليمان بن صُرَد، وعُبَيد الله بن عبد الله المرّيّ وكان بعد مقتل الحسين يؤلِّب الناس ويحرّضهم على الوثوب على بني أميّة لأخذ الثأر منهم، وخطبته هذه من الخُطَب التي حَرَّض بها على بني أمية، وكان يعيدها على مسامع جماعته حتّى حفظوها.

١- الدراسة المعنوية:

- **معاني الخطبة وأفكارها:**

عرض عُبَيد الله أفكاره في تأنٍّ ووضوح، متنقِّلاً من فكرة إلى أخرى جامعاً أسباب التأثير في نفوس متلقِّي خطبته، فقد اصطفى الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بهذه النبوة التي هي الفضل كله، ومن ثمة فليس من أحدٍ أعظم حقاً في أمته من هذا النبي الكريم ولا من ذريةٍ أعظم حقاً في أمتها من ذريته، ثم مضى فصوَّر مأساة الحسين في كربلاء، وانتقل بعد ذلك إلى الحسين نفسه فأبانَ صدقه وصبره وأمانته ونجدته وحَزمه ومكانته من حيث الأبُ الذي هو أول المسلمين والجد الذي هو رسول الله ﷺ ، ثم انتقل إلى فكرة (التوبة)، فالتوبة برأي الخطيب ليست إقراراً بالذنب فحسب بل هي العمل على محوِ ما ترتب عليه، بالتمسّك بكتاب الله وسنة نبيه والخروج إلى المطالبة بدماء أهل بيته وجهاد المحلّين المارقين من بني أمية، ثم تأتي النتيجة لكل أمرٍ مثل أمرهم فإمّا القتل الذي يحققون له ما عند الله من فوزٍ وإما النصر الذي يعدون به الحق في الحكم إلى أهله الذين هم آل البيت.

---

[1] آل عمران: ٣: ١٠٣.

[2] اجترم: ارتكب واقترف.

[3] ترميله: تلطيخه بالدم.

[4] جزراً: قطعاً.

فالخطبة مقسَّمة إلى أفكار فرعيّة واضحة، هي:

١. تصوير عبيد الله مكانة النبي من الأمة الإسلامية. وما حققه الله به من خيرٍ لها.
٢. انتقاله إلى الحديث عن مكانة آل البيت من هذه الأمة.
٣. تصوير ما وقع للحسين في كربلاء.
٤. طرح فكرة خذلان الحسين وآل بيته والتوبة من ذلك والدعوة إلى الأخذ بالكتاب والسنّة والخروج للحرب لتحقيق الشهادة أو النصر.

- **سمات المعاني:**

كانت المعاني مرتّبة واضحة منسّقة، تسلم كل فكرة إلى الفكرة التي تليها.

٢- الدراسة اللغوية:

- **لغة النص:**

ألفاظ الخطبة فصيحة، متلائمة مع المعاني والأفكار التي عرضها الخطيب، استمدّ الخطيب معظمها من المعجم الإسلامي ((**اصطفى محمدًا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خَلْقِهِ بنبوَّته –الأوَّلين والآخِرين–** ...))، وجاءت التراكيب: قوية، مترابطة، حسنة السبك لا التواء فيها ولا عسر.

- **الأسلوب:**

١. راوَحَ الخطيب في خطبته بين الترسُّل والازدواج، فهو يكثر من التوازن بين الجمل، ويقوم بتقسيم كلامه إلى فقرات قِصَارٍ متناسبة الطول، متشابهة الأداء. ((**قلَّتْ حُماتُهُ، وَكَثُرَتْ عُداتُهُ حَوْلَهُ، فقتله عَدُوُّهُ وخَذَلَهُ وَلِيُّهُ، فويلٌ للقاتِل، وملامةً للخاذِل**...))

٢. وفرة الأساليب الإنشائية في الخطبة، بما يحقق التأثير، فقد استخدم أساليب الاستفهام الأدبية بصورة جيدة موفقة ((**فهل خَلَقَ رَبُّكُمْ في الأوَّلين والآخِرين**...))، كما استخدم عبارات التعجّب ((**للهِ أنتم**...))، وأضفت هذه العبارات على الخطبة لوناً خاصّاً من التأثير، فالخطيب كان يعمد إلى صوغ الجمل القصيرة التي تتابعت في انسياب يُحدث تأثيره في عقول مستمعي الخطبة ووجداناتهم، فأسلوبه يتّسم بالحرارة والحياة والقوّة، ويصوِّر في سماته هذه اندفاع العاطفة وقوّة الشعور فهو حزينٌ متأثّرٌ بمقتل الحسين ويريد أن ينقل حزنه وتأثيره هذا إلى مستمعيه. ((**قلَّتْ حُماتُهُ، وَكَثُرَتْ عُداتُهُ حَوْلَهُ، فقتله عَدُوُّهُ وخَذَلَهُ وَلِيُّهُ، فويلٌ للقاتِل، وملامةً للخاذِل**...))

٣. خَلَت الخطبة من الصور البَيانيّة كالاستعارات والتشابيه وغيرها –إلّا ما ندر– وعوّض الخطيب غياب الصور البيانية عن ذلك بفنون البديع، فحفلت الخطبة بالمقابلات والمطابقات ((**قلَّتْ حُماتُهُ وَكَثُرَتْ عُداتُهُ حَوْلَهُ – فإنْ قُتِلْنا... وإنْ ظَهَرْنا**...)) ، وجاءت محمّلة بمعاني المفارقة، ونجد الاقتباس من القرآن الكريم، فقد اقتبس قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾[٥].

إنَّ هذه الخطبة تمثّل صورة لأسلوب الشيعة في خطبهم، وهو أسلوب يعتني بالأفكار وترتيبها، وحسن عرضها، مع عدم إغفال النواحي الجمالية التي تخدم الأفكار وتخرجها في ثوب من البلاغة والفصاحة.

---

[٥] آل عمران: ٣: ١٠٣.

- **أهم المعاني التي اتَّكَأَ عليها خُطَباء الشيعة:**

١- عرض حُكْم بني أمية المخالِف للإسلام.

٢- اعتمادهم على النَّسَب القريب من الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣- عنصر مأساة كربلاء (بعد مقتل الحسين عام ٦١هـ).

٤- استخدام الشحنات العاطفية اللغوية لقلب الرأي ضد الأمويين.

٥- الدعوة إلى التوبة، وذلك بمقاومة بني أمية تكفيراً عن التسبُّب بمقتل الحسين رضي الله عنه.

انتهت المحاضرة الرابعة